أثر علم السلف في القلوب

فكذلك علم السلف الذي ذكرنا لا شك أنه أَثَّر في قلوبهم، فصار من آثار ذلك العلم: الإيمان الذي هو عقيدة راسخة؛ سبب رسوخها: قوة الدليل، الدليل الذي اعتمدوه هو: تلك النصوص الواضحة التي لا خفاء فيها ولا التباس؛ وذلك لأنهم بنوا عقائدهم على أصول عقلية تؤيدها أدلة وأصول نقلية سمعية. فالأدلة النقلية هي: ما ورثوه عن نبيهم صلى الله عليه وسلم من الآيات ومن الأحاديث. والأدلة العقلية هي: ما شهدت به فطرهم الفطر السليمة الفطر المستقيمة التي لم تتغير بالبدع ولا بالخرافات ولا بغيرها؛ بل صانها ربها عن أن تركن إلى تلك الشبهات وتلك الخرافات. فكان ذلك سببا من أسباب بقائها على هذه العقيدة ورسوخها عليه وعدم تزعزعها؛ ولهذا لم تؤثر فيهم تلك الشبهات، الشبهات التي أدلى بها المبتدعة ما أثرت فيهم، لماذا؟ لقوة عقيدتهم؛ وإلا فالمبتدعة عندهم شبهات، فعند الخوارج شبهات يستدلون بها، وعند المعتزلة شبهات يعتمدونها؛ ولكنها شبهات لا يُلْتَفَت إليها وليست راسخة؛ بل بعضها يحطم بعضا.الشبهات التي يتشبثون بها مثلها شيخ الإسلام ببيت مشهور ذكره في آخر العقيدة الحموية بقوله: حجج تهافت كالزجاج كأنها حق وكلٌّ كاسر مكسور حججهم أو شبهاتهم بمنزلة الزجاج، أنت تعرف أنه إذا كان معك زجاجتان إحداهما في يدك اليمنى، والأخرى في اليسرى ثم ضربت إحداهما بالأخرى، أليستا جميعا تتكسر كل منهما، وكل منهما تفنى وتتصدع؟ فهذه حجج، حجج المعتزلة عقلية تنقضها مثلا حجج القدرية، تنقض حججَ المعتزلة أيضا حججُ الجهمية بعضها يبطل بعضا كما مثَّلها بهذا ومثَّلهم أيضا بعض العلماء كابن القيم في "الصواعق" بمثالٍ نَظَمَهُ أيضا في أبيات بقوله: واضرب لهم مثلا بعميان خلوا في ظلمة لا يهتدون سبيلا فتصادموا بأكفهم وعصيهم ضربا يدير رحى القتال طويلا حتى إذا ملوا القتال رأيتهم مشجوجا أو منبوذا أو مقتولا يتسامع العميان حتى أقبلوا للصلح فازداد الصياح عويلا هذا أيضا مَثَلٌ لحججهم، وأنهم مثل الأَكِفَّاء إذا اصطدم بعضهم ببعض؛ وذلك أنهم لا يهتدون ولا يدري أحدهم بالآخر، فإذا تصادموا وظن أحدهم أن الآخر تعمده فإنه سيضربه بكفه وبعصاه ثم كل منهم يضرب الآخر، فهكذا شبهات هؤلاء لما كان الحق واضحا لم تؤثر فيه تلك الشبهات، ولما كانت تلك الشبهات مبنية على تخرصات وظنون لم تُقْبَل؛ بل أبطل بعضها بعضا؛ ولهذا كثيرا ما يذكرون أن بعضهم يرد حجتهم بنفسه، أولئك المبتدعة يبتدع حجة ويتخذها دليلا ثم يأتي إلى نقضها بنفسه أو ينقضها شيخه أو تلميذه وهذا دليل على أن تلك الشبهات ليست على علم راسخ. وأما حجج الصحابة والتابعين ومن بعدهم فإنها عن دليل راسخ؛ فلهذا لم تؤثر فيها تلك الشبهات، لما أنهم اعتقدوا هذه العقيدة وآمنوا هذا الإيمان ورسخ في قلوبهم ولم تزعزعه تلك الشبهات كان له آثار، ما هي تلك الآثار؟ لو أخذنا نذكر قصصًا من قصص الصحابة والتابعين وكذلك ذكورهم وإناثهم وما أُثِرَ عنهم من العلوم -رحمهم الله- لطال بنا المجال. لا شك أن تلك القصص التي أثرت عنهم دليل على ثباتهم، فمثلا علومهم التي علموها أليسوا قد عملوا بها لأنهم آمنوا بمعناها؟